المحاضرة السادسة:

السياسة التعليمية الفرنسية الاستعمارية بالجزائر.

راهن الاستعمار الفرنسي منذ دخوله الجزائر على المدرسة في نشر ثقافته، وإخضاع الجزائريين فكريا وبالتالي تحقيق الاحتلال الشامل وإبادة الشخصية الجزائرية والقضاء عليها. ويمكن اعتبار السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر أداة من أدوات الاحتلال والغزو الفكري من أجل ضمان استمراره وتوسعه، فقد أدركت السلطات الفرنسية أن استدمار العقول هو الضمان الوحيد للسيطرة على الشعب، فعملت على تدجينه وضمان ولائه وإخضاعه النهائي لمشروعها الإستدماري؛ فبعد أن وجدت صعوبة في استعمال سياسة السيف والمحراث، رأت أنه من الضروري الاعتماد على التعليم، لأن استعمار العقول هو الضمان الوحيد للسيطرة على الجزائر.

وفي الواقع إنّ سياسة فرنسا التّعليمية بالجزائر تتأرجح بين فكرتين متعارضتين إحداهما تنادي بتعليم الجزائريّين تمهيدا لإدماجهم في فرنسا، والأخرى تنادي بحرمانهم من كلّ تعليم سواء كان باللّغة الفرنسية أو باللّغة العربية خوفا من ثورة الشّعب بعد تعليمه من جهة ومن جهة أخرى خوفا من غياب اليد العاملة الرّخيصة الفقيرة.

فالأولى كان يمثّلها المسؤولون الفرنسيّون، والثّانية المستوطنون الأوروبيون ولكن في الأخير استقرّ الرّأي على الفئة الأولى بالرّغم من أنّها عكست كلّ ما قالته فقد أدّت إلى تجهيل الجزائريّين، وتجدر الإشارة قبل الشّروع في تبيان مميّزات هذا التّعليم التّذكير بفكرة هامّة تكمن في عدم رغبة الجزائريّين في توجيه أبنائهم لهذا التّعليم، وذلك لتخوّفهم من التّنصير، إذا كان التّعليم الفرنسي يمثّل خطرا على فقدان الهويّة العربية الإسلامية، أي فقدان الدّين ولغته العربية.

1- أهداف السياسة التعليمية الفرنسية:

لقد طبقت الإدارة الاستعمارية سياسة تجفيف منابع الموارد المالية، التي كانت ترد على المراكز الثقافية، بسب سياسة "الأرض المحروقة" التي تباها الاستعمار، والتهجير القصري للقبائل الجزائرية من موطنها، مثل قسنطينة وتلمسان بعد 1837م، وكلا المدينتين كانتا على جانب طيب من النشاط العلمي والثقافي، إذ يقر الجنرال دوماس في تقريره: إن المدارس الشهيرة والزوايا كانت متوفرة، ثم اختفت نتيجة الاحتلال وإلاهمال ومصادرة الأوقاف، وهجرة العلماء.

ويتصل بذلك عملية النفي والتهجير التي قام بها الجنرال بوجو للعلماء والقضاة، من طينة العالم حسين بن عزوز 1841م والمفتي مصطفى الكبابطي، الذي نفي إلى جزرة سان مرغريت عام 1843م، كما طرد حمودة الفكون وأخيه 1841م من قسنطينة إلى الإسكندرية، وفي نفس الوقت انتهت حياة بوضربة في المغرب، وحياة حمدان بن عثمان خوجة في اسطنبول خلال الأربعينيات، والتحق من تبقى من العلماء والطلبة لمقاومة. هذه الوضعية شكلت حرجا للسلطات الاستعمارية بعد مرور عشرن سنة عن الاحتلال في التعامل مع المجتمع الجزائري، إذ لم تجد من توظفه في القضاء، أما عن الأدب والثقافة والفن فلا حديث.

كما كان الهدف من إنشاء نظام تعليمي استعماري موازي للتعليم التقليدي، يهدف إلى القضاء على الثقافة الوطنية، وفصل المجتمع الجزائري عن ماضيه من خلال محو فكرة الأمة الإسلامية وتحييده عن انتمائه المشرقي.

- محاربة التعليم العربي والإسلامي وتقزيم دور المساجد والزوايا والكتاتيب.
- إحلال اللغة الفرنسية مكان العربية، وذلك باستخدامها في تعليم الأهالي.
- نشر الديانة المسيحية التي جاءت لتحل محل الإسلام، ويمكن أن يلاحظ المطلع أن زوال النظام العسكري وقدوم النظام المدني جعل المعمرين يتحكمون في مقاليد الحكم ويحاربون الإسلام باستغلال وضعية المجتمع الجزائري، ودعم الآباء المسيحيين في نشر الديانة المسيحية.
- كان يهدف الإدماج لإذابة المجتمع الجزائري في الثقافة الفرنسية، وقد استغل الفرنسيون سياسة فرق تسد، وركزوا جهودهم على منطقة القبائل، أين أظهرت العديد من الكتابات منذ السنوات الأولى أن سكان هاته المناطق أقرب إلى الأوربيين منهم إلى العرب، وعليه يجب فرنستهم...".

2- الوسائل المستخدمة لتحقيق أهداف السياسة الإستعمارية الفرنسية:

- استيلاء الفرنسيين على بعض البنايات المدرسية، وتحويلها إلى مكاتب إدارية مدنية أو عسكرية ومدارس أخرى اضطرت إلى إغلاق أبوابها بعد استشهاد معلميها في المعارك.
- تهجير ونفي الكثير من العلماء المسلمين، واختيار معلمين تبنوا النمط والثقافة الفرنسية.
- الإستيلاء على الأوقاف المساجد والزوايا باعتبارها الممون الرئيسي للتعليم العربي الجزائري.

- التشديد على التعليم الديني ومراقبته، وإغلاق الكثير من الزوايا والمساجد خاصة تلك المتواجدة في المدن الكبرى.
- تعيين فقهاء ومفتيين ذات انتماء فرنسي، وإلزامهم بالتعاون مع السلطات الفرنسية ضد أهل البلد.
- منع فتح المدارس العربية منذ صدور قانون 18-10-1892م الذي يقضي بعدم فتح أي مدرسة عربية إلا برخصة من السلطات الفرنسية، ولتسلم هاته الرخصة: فيجب الاستعلام حول صاحب المدرسة وانتماءاته.
- خاضت الإدارة الاستعمارية حربها للقضاء على اللغة العربية باعتماد ثلاثة وسائل هي: الصحافة، المدارس والكتب والمخطوطات، فاستولى الفرنسيون على بعض البنايات المدرسية وحولوها إلى مكاتب إدارية فاضطرت أخرى للإغلاق، وذلك لتجهيل المجتمع وتسهيل دمجه لاحقا في المنظومة الاجتماعية الفرنسية، بانتشار المدارس الفرنسية مكان العربية.

3- نتائج السياسة التعليمية الفرنسية:

لقد ساهمت السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر، والتي كانت سياسة متعمدة ومبنية على دراسات معمقة وتقارير مسبقة، في القضاء على التعليم العربي الإسلامي الأصلي للجزائريين، وقد مذحت فرنسا في تلك السياسة إلى حد بعيد، ومدا يدل على مدى تعمد فرنسا في محاربة التعليم الجزائري، ما ذكرته التقارير الفرنسية على لسان العسكريين الفرنسيين، ومدا جاء في أحد التقارير: إننا جئنا لإضاءة الشموع فأطفأنا الموجود منها. وورد على لسان تقرير لسائح أوربي كان قد زار الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، ثم زارها بعد أن احتل الفرنسيون البلاد شهادته على حالة التعليم في الجزائر، كيف كان في العهد العثماني، وكيف أصبح قوله: أصبحت المدارس والزوايا مهجورة وخرابا في كل مكان في الجزائر.

وبذلك قام الفرنسيون بتحطيم التعليم العربي الإسلامي، وحاربوا اللغة العربية، وفرضوا التعليم اللغة الفرنسية وجعلوها لغة رسمية للبلاد، لذلك امتنع الأهالي الجزائريون عن تعليم أبنائهم في المدارس الفرنسية، بعد أن ضيقت عليهم فرنسا الظروف المعيشية، كما قام الفرنسيون بمصادرة الأوقاف وضيقوا مصادر تمويل التعليم للجزائريين، كما استولت على المؤسسات التعليمية وهدمت الكثير منها، وبالتالي نجحت في سياستها لمحاربة التعليم العربي الإسلامي منذ 1850م.

-تقديم التاريخ الفرنسي على أنّه التاريخ الوطني، ومحو فكرة الدولة الجزائرية تاريخيا، واعتبار المنطقة منطقة فراغ حضاري، فقد استطاعت فرنسا أن تكوّن فئة ذابت في الثقافة الفرنسية ودافعت دفاعا مستميتا عن أفكارها، ففرحات عباس صرخ "لقد بحث عن الأمة الجزائرية في المقابر وكتب التاريخ ولم أجد شيئا"؛ ورغم الدفاع المستميت لهاته الفئة على الثقافة الفرنسية والدعوة للإندماج في المجتمع الفرنسي إلا أنهم طالما اعتبروا من قبل الفرنسيين مواطنين من الدرجة الثانية.

- فشل الفرنسيين في دمج الجزائريين في الثقافة الفرنسية؛ فقد رفض الكثير من الآباء ارسال أبنائهم إلى المدارس الفرنسية، ولأن المجتمع الجزائري كان أغلبيته من أهل الريف فقد أرسلوا أبناءهم إلى الكتاتيب لتعلم القرآن والعربية، وعبر عن فشل السياسة التعليمة الفرنسية أحد الموظفين الفرنسيين ماسكيردي: لقد رفض الآباء ارسال أبنائهم إلى المدارس فهم يروننا كفارا"؛ وحتى بعض أولئك الذين التحقوا بهاته المدارس واصلوا دروس حفظ القرآن في الكتاتيب.
- رغم المقاومة الجزائرية للتعليم الفرنسي؛ إلا أن السياسة الفرنسية التعليمية استطاعت تحطيم التعليم التقليدي، وتجهيل أغلبية المواطنين الجزائريين.

4-النظام التعليمي الفرنسي في الجزائر 1830-1962:

وقد اتسمت السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر بمرحلتين مرحلة أولى وهي بدايات الاستعمار حيث كان يشرف عليها حاكما عسكريا ينظم قوانينها ويسهر على تنفيذها، ثم مرحلة ثانية أشرف عليها الوزراء ورجال السياسة.

1- التعليم خلال النظام العسكري 1830-1871م.

عملت فرنسا منذ دخول الجزائر تحت الحكم الفرنسي على استبدال الثقافة المحلية بثقافة فرنسية، ولإبعاد الناس عن الدين الإسلامي عملت جاهدة للقضاء على التعليم العربي واستبدلته بآخر فرنسي. بحيث أدى استيلاءه على أغلب الاوقاف وتدمير البقية الباقية منها إلى تراجع التعليم على جميع المستويات فقد كانت بمدينة الجزائر 100 مدرسة سنة 1830م ليتراجع عددها إلى 24 مدرسة سنة 1840م وانخفض عددها إلى 14 مدرسة سنة 1846م، وكان يتردد عليها حوالي 400 تلميذ من مجموع سكان المدينة.

كما فرضت رقابة مشددة على التعليم في الزوايا من حيث البرامج والطاقم التربوي حتى لا تصبح أداة للدعوة إلى الجهاد ضد فرنسا، وتشير العديد من التقارير واعترافات الفرنسيين

على أن الحملات الفرنسية العسكرية كانت نتائجها وخيمة على التعليم في الجزائر فقد اعترف دوماس (Dumas): أنه بعد 20 سنة من الاحتلال لم يعد في إمكان السلطات الفرنسية أن تجد من توظفه في القضاء الا بصعوبة حيث توقف التعليم التقليدي أو الأصلي عن أداء مهامه بسبب مصادرة الأوقاف وهجرة العلماء والمعلمين أو نفيهم خارج الجزائر إضافة إلى عدد الشهداء خلال المقاومات الشعبية المسلحة.

وقد استولى الفرنسيون على بعض البنايات المدرسية المحلية وحولوها إلى منشآت عسكرية ومدنية كما وقع مع زاوية التلمساني التي حوّلت إلى مقر للهندسة العسكرية ثم إلى مركز تبشيري، وأخرى حولت إلى مدارس فرنسية، وجاء في أحد التقارير الفرنسية للجنة القروض الإستثنائية سنة 1847م: "لقد تركنا المدارس تسقط وشتتناها، لقد انطفأت الأنوار من حولنا".

وتلخصت السياسة الفرنسية التعليمية خلال العهد العسكري في:

- إبقاء بعض المدارس وتعيين موظفين لها.
- إنشاء مدارس جزائرية في كل من قسنطينة، العاصمة ووهران وفق مرسوم 1850/09/30م سميت بالمدارس الشرعية الثلاث، تعمل على تدريس الفقه والعلوم الشرعية، ويشمل التعليم على المرحلة الثانوية والعالية، وكانت شروط الالتحاق بها أن يتحكم في اللغة الفرنسية ويحتاج إلى موافقة السلطات الاستعمارية التي تعتمد على شرط الولاء للاستعمار، لأن مهمتها الأساسية تخريج الأئمة والقضاة الذين تحتاجهم الإدارة الفرنسية.
- تأسيس مدارس أوربية ومدارس عربية فرنسية لتعوض هاته المدارس.

ولامتصاص الغضب الشعبي أنشأ الفرنسيون المدارس العربية، أين بادرت السلطات الفرنسية إلى تأسيس مدارس عربية فرنسية وذلك بمقتضى المرسوم الرئاسي 14 جويلية 1850م. وكان الهدف من تأسيسها هو تكوين جيل منفتح على حضارتها وثقافتها ومحاربة التعليم التقليدي وثوابته. تدرس فيها اللغة الفرنسية والعربية والحساب والتاريخ والجغرافيا تحت الرقابة الفرنسية واللغة الأساسية هي الفرنسية، ولم تقتصر على الذكور بحيث أنشئت مدارس للفتيات المسلمات لتعليم الخياطة والقراءة والكتابة ومحاولة التأثير على

الأسرة المسلمة وبلغ عددها سنة 1861م 38 مدرسة تشرف على 13 ألف طفل جزائري، وقد عبر الدوق دومال (Duc Daumal) عن الهدف منها بقوله: "إقامة مدرسة بين الجزائريين أحسن وأفضل من كتيبة عسكرية لفرض الأمن والتغلغل داخل الجزائر" ومنح إسما لهذه النظرية "ضمان توجيه الأفكار".

وفي المقابل استمر الفرنسيون في إنشاء مدارس للكولون ففي الفترة بين 1830-1850م استوطن بالجزائر حوالي 36 ألف أوربي، وبين 1850-1860م وصل العدد إلى أكثر من 100 ألف مستوطن واستمر في التصاعد، وقد افتتحت أول مدرسة ابتدائية فرنسية سميّت "بمدرسة التعليم المشترك لتعليم القراءة والكتابة" في أفريل سنة 1833م، وضمت حوالي 200 تلميذ، أين ضمت بعض الجزائريين أيضا، وافتتحت مدرسة أخرى بعد احتلال عنابة سنة 1833م، وأخرى في دالي إبراهيم سنة 1834م ضمت حوالي 50 تلميذا وفي القبة سنة 1835م، وأسست سنة 1835م متوسطة خاصة بعد إرسال العائلات الفرنسية لأبنائها المتخرجين من الابتدائيات الجزائرية لإكمال دراستهم في المتوسطات بفرنسا.

وأسس الفرنسيون حلقات لتعلم اللغة العربية سمي بـ "كرسي العربية" وكان الهدف منه تعليم المستوطنين والراغبين في تقلد مناصب عسكرية أو مدنية في الجزائر، للتواصل مع السكان المحليين، وأوّل من تولى هذه الحلقة رجل سوري مصري الأصل يدعى جوبي فرعون.

وانتشر التعليم الإبتدائي بسرعة ليعم الكثير من المدن كمستغانم والبليدة وغيرها، فمثلا في سنة 1844م بلغ عدد المتمدرسين الفرنسيين في هاته المدارس 2448 أوربي، وأما في سنة 1850م فقد بلغ أكثر من 9 آلاف متمدرس.

وبلغ عدد المدارس سنة 1851م في قسنطينة 522 مدرسة في المستوى الأول والثاني، ليزيد الرقم ويبلغ في العام الموالي 938 مدرسة ضمّت 7450 تلميذ، في الوقت الذي كان عدد الجزائريين المتمدرسين في الزوايا بالأرياف يبلغ 3000 تلميذ، وفي المقابل فإن عدد المدارس الخاصة بالجزائريين على كامل التراب الوطني لم يتجاوز سنة 1870م 36 مدرسة عربية فرنسية تضم 1300 تلميذ.

فكان موقف الجزائريين مقاومة هذه السياسة الاستعمارية عن طريق استغلال الكتاتيب للتعليم، مواصلة التعليم الأصلي في زوايا المرابطين في المناطق النائية، الهجرة إلى تونس والمغرب، طلب رخص لفتح مدارس خاصة جزائرية ابتدائية لأبنائهم مثل مدرسة الشيخ محمد أطفيش في غرداية ومدرسة السلام والشبيبة في الجزائر ومدرسة التربية والتعليم في قسنطينة.

2- التعليم خلال النظام المدني 1871-1962م.

يبدو أن قدوم النظام المدني وسيطرة المستوطنين على مقاليد الحكم والسياسة التعليمية، كان أكثر سوء من النظام العسكري، حيث تمّ إلغاء كل الاصلاحات السابقة في التعليم بل ازداد القمع الاستعماري بسن قوانين الأندجينا ورفع الضرائب ومصادرة الاراضي فانخفض عدد المدارس سنة 1882م إلى 16 مدرسة وعدد التلاميذ 2814 من الذكور و358 من البنات، مع العلم أن عدد سكان الجزائر قدر بـ 3 ملايين نسمة.

وفي سنة 1882م لاحظ بوليو أن عدد المدارس الإبتدائية للفرنسيين بلغت 697 مدرسة ضمت 53 ألف متمدرس فرنسي، بينما لا توجد سوى 21 مدرسة للجزائريين تحتوي 3 آلاف متمدرس جزائري، وفي 13 فيفري سنة 1883م صدر مرسوم ينظم التعليم في الجزائر، فأنشأ نوعين من المدارس الأولى خاصة بأبناء المعمرين والثانية بأبناء الجزائريين وكلاهما يتلقى تعليما بالفرنسية، وعندما يصل الطالب للمرحلة الثانوية يمكن أن يتعلم العربية اختياريا، لكن عدد المعلمين الجزائريين الذين وظّفوا لتعليم الجزائريين كانوا في تراجع مستمر أين بلغ عددهم عام 1877م، 216 معلّما، لينخفض سنة 1882م إلى 198 معلّما، و69 معلما سنة 1893م.

وأنفقت السلطات الفرنسية بسخاء على التعليم الفرنسي في الوقت الذي ضيقت فيه ماديا على التعليم الجزائري، ففي سنة 1902م بلغ الإنفاق على التعليم الفرنسي 5.180.328 فرنك فرنسي وفي المقابل أنفق 1.274.389 فرنك على التعليم الجزائري، ليتصاعد هذا الرقم ويقارب العشرة ملايين فرنك للتعليم الفرنسي ويستقر في حولي المليون والنصف بالنسبة للجزائريين سنة 1908م.

لكن حتى الجزائريون الذين كانوا يتمدرسون في المدارس الفرنسية، حاول الكثير منهم تعلم العربية والدين الإسلامي، فقد تدافع الجزائريون تدافعا غريبا على المدارس الفرنسية والعربية (المدارس الحرة لجمعية العلماء)، حتى أن ماسينيون استغرب كيف يستطيع التلميذ الجزائري أن يدرس أربع عشرة ساعة من الأربع والعشرين ساعة اليومية.

5-موقف الجزائريين من التعليم الفرنسي:

على الرغم من التضييق الاستعماري على الزوايا والمدارس العربية، بالقوانين تارة ولغويا تارة أخرى إلا أن العربية استطاعت أن تحافظ على وجودها، من خلال نشاط التعليم في المدارس القرآنية والوعظ وإلارشاد في المساجد، كما تم إنشاء زوايا جديدة، منها زاوية الهامل التي أسسها محمد بن بلقاسم 1849 قرب بوسعادة، وظلت زاوية زواوة مستمرة في أداء رسالتها التثقيفية إلى ثورة 1871.

-برزت مقاومة الشعب الجزائري للسياسة التعليمية الفرنسية في شكل قطيعة تامة معها، ولم يلتحق بمدارس الإستدمار سوى أبناء الطبقات البرجوازية والعائلات النافذة والمتعاملة مع فرنسا.

-عارض السكان طريقة تعامل فرنسا مع المدارس الإسلامية فمثلا قام سكان قسنطينة برفع عريضة إلى الحاكم العام يطالبون فيها بإبقاء المدارس القرآنية مفتوحة طوال اليوم.

وتمثل رد فعل العائلات الجزائرية في الهجرة إلى المشرق العربي حفاظا على عقيدتها وهويتها. بعد ذلك تغير موقف الجزائريين من التعليم في المدارس الفرنسية، وبرزت الحاجة إلى التعليم بلغة المحتل حتى يتمكنوا من محاربته ومواجهته فكريا وعسكريا.

وفي مقابل وجود نموذج ثقافي خاضع لتأثير الاستعمار، نجد مظاهر ثقافية مخالفة له يقودها علماء عاملين، أمثال: حمدان بن عثمان خوجة، وطالب إلاغرسي، والأمير عبد القادر الجزائري، وأحمد بن العطار القسنطيني، الشيخ محمد أطفيش المزابي، وصالح بن مهنا القسنطيني، والدكتور محمد بن ابي شنب اللمدي.

ورغم التراجع الذي عرفته الحركة الثقافية في الجزائر غداة الاحتلال الفرنسي، إلا أنها استمرت في أشكال متعددة تعمل على إذكاء الرصيد الثقافي المتبقي للشعب الجزائري، وإصرار علمائها على مواجهة الثقافة الدخيلة ببعث الثقافة الوطنية.

قائمة المصادر والمراجع:

- بلحيدس، خديجة، مظاهر السياسة التعليمية في الجزائر خلال فترة الاحتلال 1830-1962م، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، ع.46، جامعة معسكر، 2014.
- بن ترزي خير الدين، التعليم في الجزائر خلال فترة الاحتلال، حوليات التاريخ والجغرافيا، ع04، جامعة بوزيعة، 2013.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج03، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م.

- التعليم العالي في عهد الإستعمار الفرنسي، وزارة التعليم والبحث العلمي، الرابط: https://bit.ly/2xd6LIW
- آسيا بلحسين رحوي، وضعية التعليم الجزائري غداة الاحتلال الفرنسي، دراسات نقدية، ع07، ديسمبر 2011م.